القسم الثامن
التمدن والعمران

شهد المؤرخون كافة ان ايام المسلمين بصقلية سواء حاكمين او محكومين كانت ازهر ايام الجزيرة واكثرها امنا واوسعها عمرانا.

ولا نستطيع مهما اوتينا من مقدرة وبيان ، ان نلخص مدنية المسلمين في الجزيرة الصقلية ونجمل وصفها بمثل ما لخصها واجمل وصفها اجمالا بديعا المؤرخ الاكبر النزيه قوسطاف لوبون ، في كتابه مدنيات العرب ؛ فلا نرى اوفق من تعريب الفصل برمته ، اذ هو الصورة الصادقة لمدنية المسلمين هنالك ، صورة لم تكد تترك شاردة ولا واردة الا احصتها وسجلتها ؛ يقول قوسطاف لوبون :

« ان ما لدينا من المصادر ، لاحياء معالم المدنية العربية بصقلية نادر قليل ، بل ان المعلومات الوحيدة التي لدينا تنحصر في روايات المؤرخين المختلفة ، وفي عدد قليل من الآثار التي سلمت من ايدي الخراب والتحطيم ، وفي بعض النقود .

« ذلك المقدار الزهيد الذي بين ايدينا اليوم يكفينا على كل حال لاقامة البرهان على ان مدنية العرب في جزيرة صقلية كانت دون مدنيتهم في اسبانيا وفي مصر ؛ انما هي كانت رغم ذلك موجودة وطيدة الاركان ؛ بحيث ان المستوى الفكري والصناعي والاجتماعي في صقلية كان ارفع عند خروج المسلمين من صقلية من المستوى الذي كانت عليه عندما دخلوها .

لا يستطيع انسان ان يدرك مدى التاثير التمديني لشعب على آخر الا بمدى ما احدثه فيه من اثر اصلاحي فاذا نحن جرينا على هذه القاعدة راينا ان النفوذ الصالح للعرب في جزيرة صقلية كان جسيما .

النظام الاداري(١) — عندما اتم المسلمون فتح الجزيرة ابتدأوا فيها عصر التنظيم والترتيب ولقد كانت الجزيرة مقسمة منذ عهد الفنيقيين الى ولايتين: سرقوسة وبالرمة فالعرب قسموها الى ثلاث ولايات(٢) تقسيما مناسبا للوضعية الجغرافية .

ولقد كان لكل وال من الولاة فى هذه الاقاليم الثلاثة تحت امرته طائفة من القواد يحكمون النواحى .

القضاء — كان المفتي وهو قاضى القضاة ينتصب في مدينة بالرمة . وفي كل مدينة من المدن كان يوجد قاض و كاتب .

الجباية والديوان — فى كل مدينة كان يوجد مستخلص الضرائب والعشور وهنالك (ببالرمة) مجلس اكبر يدعى الديوان (٣) ؛ من خصائصه ضبط اموال الدولة وفحص الحسابات العامة .

الحرية الدينية والمدنية — كان المسيحيون الصقليون يتمتعون فى كل ما ليس له مساس بالصالح العام بقوانينهم الدينية والمدنية ، ولهم كذلك حق الحكم فيما بينهم .

فالقضاة من الاغريق الذين كان يطلق عليهم اسم « ستراتيج » او الحكماء قد احتفظوا مدة الفتح الاسلامي بوظائفهم وبامتيازاتهم وحتى باسمهم التقليدى القديم فكانوا يحكمون فى كل خلاف شجر بين النصارى وكانوا هم الذين يتولون جمع الجزية التى فرضها العرب على رعاياهم النصارى ، وكان مقدارها :٤٨ دينارا فى السنة على كل رجل غني و٢٤ ديناراً على متوسط الحال ؛ و ١٢ ديناراً على العامل

(١) العناوين الصغيرة اضفناها على الاصل لزيادة البيان (٢) هي :سرقوسة ونوطس وبالرمة (٣) اخذ النرمان نظام الديوان واسموه « Dohana » ومنها اخذ الاوربيون كلمة الدوان « Douanes » .

الذى يكسب قوته بعمل يديه فكانت هذه الضريبة ، اقل مما كان يدفعه النصارى تحت حكومة الروم . اما النساء والاطفال فكانوا لا يدفعون ادنى اتاوة .

ولقد كانت كل القوانين المدنية المتعلقة بالاملاك وبالمواريث ونحو ذلك منطبقة غاية الانطباق على عادات البلاد واخلاقها الى درجة ان الرومان عندما استولوا على البلاد ابقوا العمل جاريا بهاتيك القوانين ولم يمسوا منها شيئاً .

التسامح الديني — لقد احتفظ المسيحيون ايام سلطان المسلمين بقوانينهم وعاداتهم وحرية معتقدهم ، ولقد قال الراهب الدومينكي كورادين من كنيسة القديسة كاترينة بيالرمة ، ان الرهبان كانوا يخرجون مرتدين ثيابهم التقليدية الدينية ، ويذهبون كذلك يحملون الى المرضى طقوس الدين .

اما الراهب مور كولي ، فيقص علينا قصة الحفلات الدينية فى مدينة مسينا ، حيث كان المسيحيون فى اعيادهم يحملون علمين : علما اخضر اللون وفى وسطه برج اسود ، وهو علم المسلمين ؛ وعلما احمر في وسطه صليب ذهبي هو علم النصارى .

ولقد ابقى المسلمون فى صقلية سائر كنائس النصارى ولم يمدوا لها ايديهم بسوء لكنهم لم يسمحوا لهم باقامة كنائس جديدة ، وذلك خلافا لما كان واقعا فى اسبانيا

الزراعة — ما كاد العرب يبسطون سلطانهم على جزيرة صقلية حتى اندفعوا فى ميدان الفلاحة (١) والصناعة ، فانتشلوهما من وهدة السقوط العظيم الذى وقعتا من قبل فيه .

لقد ادخلوا الى الجزيرة غراسة القطن ؛ وقصب السكر وشجرة المن Frêne والزيتون (والفستق والبرتقال والليمون (٢) ؛ واحدثوا فى سبيل خدمة الارض

(١) يقول الرحالة ابن حوقل ؛ ان حقول القمح والشعير كانت تبسط على اكثر اقسام الجزيرة وشاحاً من الذهب الابريز .

(٢) قال مسيو جيهار فى كتابه « اصول النهضة فى ايطاليا » ما نصه :

قنوات الري التي لا تزال موجودة ، واستعملوا على الاخص مجارى المياه بركب المأسورة Agueduc à Siphon وكان ذلك مجهولا قبلهم (١)

الصناعة — اما الصناعة فهي مدينة لهم كذلك برقيها العظيم ؛ فقد استغلوا احسن استغلال ثروات البلاد الطبيعية ، من فضة وحديد ونحاس و كبريت ورخام وحجر صلب الخ ؛ وادخلوا الى الجزيرة صناعة الحرير ، ففي متحف نورمبرغ بالمانيا يوجد معطف من الحرير ، كان يرتديه ملوك صقلية محاط بنسج من الكتابة الكوفية يحمل تاريخ ٥٢٠ هجرية (٢) (١١٣٣ م) وكل شيء يحملنا على الاعتقاد ، بان فن صباغة الثياب قد انتقل من صقلية الى اوربا .

التجارة — اما التجارة فقد كانت قبلهم ليست بذات قيمة فاصبحت بفضلهم واسعة النطاق ، ولدينا على ذلك دليل ، ما كانت تتقاضاه (الديوانة) من مكوس على الصادرات والواردات فى عهدهم ، وهنالك لائحة طويلة الذيل ضمن اجازات تجارية نرمانية من اوائل عهد الاحتلال ، تثبت لنا مقدار ما بلغته التجارة

ان جزيرة صقلية ، امبيد وفل العتيقة ، قد اصبحت تحت ايدي المسلمين بما فيها من ثماني عشرة من المدن ، وثلاثمائة وعشرين من القلاع المحصنة ، وما استثمر فيها من معادن الذهب والفضة والصفر ومناجم الكبريت ، وما انتشر فوق اديمها من حقول الحبوب ومزارع القطن وقصب السكر وحدائق النارنج والنخيل وبما كان يغمرها من زهور ذات الوان زاهية ناصعة ، ومن مرابط الخيول الجياد ومن مصانع الاقمشة والسندس ؛ وبما كان فيها من قصور ومساجد ؛ اصبحت بكل ذلك تبدو كانها جنة من رياض الشرق اليانعة » .

(١) لاتزال بالجزيرة الى يومنا هذا آثار من قنوات الري والترع التى انشأها المسلمون ؛ كما لا تزال القرية الصقلية تحمل الطابع الاسلامي الى الآن .

(٢) انظر رسمه فى القسم المصور .

من اتساع وتنوع ، عندما استولى النرمان على الجزيرة (١)

الآثار — لم يبق الآن في صقلية من آثار المسلمين الا النزر اليسير ، واهم ذلك قصر العزيز (لازيزا) وقصر القبة ، جوار بالرمة ؛ وهذه البقية الباقية تثبت لنا ان الرواة الذين وصفوا لنا ابهة وفخامة قصور المسلمين هنالك لم يرتكبوا اي غلو او شطط .

فالراهب تيودوز ، والجغرافى الادريسي على الاخص ، قد وصفوا لنا وصفاً بديعاً معجباً تلك القصور المحلاة بالرخام النادر ؛ والفسيفساء الناصعة الالوان تحيط بكل ذلك الحدائق الغناء. والراهب تيودوز وقد اسر سنة ٨٧٨ في حصار سرقوسة وسير به الى بالرمة ؛ يحكي باعجاب عما شاهده من قصور ومساجد وحارات حوالي هذه المدينة » .

كيف ترك المسلمون الجزيرة؟

ترك لنا الجغرافى الاكبر محمد بن محمد بن عبد الله الادريسى كتابه الجليل القيمة العالى المقدار (نزهة المشتاق فى اختراق الافاق) الفه للملك النرمانى الشهير رجار الثانى ، وبطلب منه ؛ ووضع له اول خريطة (٢) جغرافية عرفت فى الدنيا تعتبر آية فى الدقة بالنسبة لذلك الزمن (انظر فى القسم المصور قطعة منها)

فلننقل عن الادريسي بعض ما وصف به مدن صقلية فى عهده اى آخر عهد الحكم الاسلامي واول عهد الحكم النرمانى ؛ بعد ان اقبل المسلمون تحت سلطة ملوك

(١) يقول مسيو نويل دي فرجي في كتابه « العالم » ان تجارة صقلية بلغت ايام المسلمين مبلغا هائلا لم تدركه ابدا من قبل ولا من بعد .

(٢) يدعون ان انكليزيا كان اول من وضع رسماً جغرافيا للعالم لكن ذلك الرسم على فرض صحته يعتبر لعب صبيان اذا قيس بخريطة الادريسى المدققة .

النصارى على اصلاح ما افسدته الحروب وما خربته حوادث الاحتلال ؛ فاستمع اليه يحكي لنا عن بالرمة

بالرمة «Palerme»

«وساحلها بهج مشرق فرج ولها حسن المباني التى سارت الركبان بنشر محاسنها فى بناآتها ودقائق صناعاتها وبدائع مخترعاتها وهي على قسمين: قصر وربض فالقصر هو القصر القديم المشهور فخره فى كل بلد واقليم وهو في ذاته على ثلاثة اسمطه ؛ فالسماط الاوسط يشتمل على قصور منيفة ، ومنازل شامخة شريفة وكثير من المساجد والفنادق والحمامات وحوانيت اتجار الكبار والسمطان الباقيان فيهما ايضا قصور سامية ومبان فاخرة عالية وبهما من الفنادق والحمامات كثير وبه (القصر القديم) الجامع الأعظم الذى كان بيعة في الزمن الاقدم واعيد فى هذه المرة على حالته فى سالف الزمان ...

فاما الربض فمدينة اخرى تحدق بالمدينة من جميع جهاتها وبه المدينة القديمة المسماة بالخالصة ، التى كان بها سكنى السلطان والخاصة فى ايام المسلمين وباب البحر ودار الصناعة التي هي للانشاء والمياه بجميع جهات مدينة بالرم مخترقة وعيونها جارية متدفقة وفواكهها كثيرة ومبانيها ومنتزهاتها حسنة تعجز الواصفين وتبهر عقول العارفين وهي بالجملة فتنة للناظرين والقصر المذكور من اكثر القصور منعة واعلاها رفعة لا ينال بقتال ولا يطاق على حال ...

والربض المحدق بالقصر القديم المتقدم ذكره هو في ذاته كبير القطر كثير الفنادق والديار والحمامات والحوانيت والاسواق وله سور يحيط به وخندق وفصل وله فى داخله بساتين كثيرة ومنتزهات عجيبة وسقايات ماء عذبة جارية مجلوبة اليها من الجبال المحدقة ببقعتها (١)

---

(١) يقول ابن حوقل ان مدينة بالرمة كانت تشمل خمس حارات :

مسينا Messine

«ساحلها بهج وارضها طيبة المنابت وبها جنات وبساتين ذات ثمار كثيرة ولها انهار غزيرة عليها ارحاء كثيرة وهي من اجل البلاد واكثرها عمارة والسفر منها واليها قصدا وهي دار الانشاء وبها الحط والاقلاع وبها الارساء من جميع بلادالروم الساحلية وبها تجتمع السفن الكبار والمسافرون والتجار من بلاد الروم والاسلام القاصدون اليها من جميع الاقطار ؛ واسواقها رائقة وتجارتها نافقة وقاصدها كثير وفى جبلها معدن الحديد الذى يتجهز به منه الى البلاد المجاورة لها ومرساها العجب العجيب الذى يتحدث به فى كل البلاد وذلك ان اكبر ما يكون من السفن العظام يرسى بها من الشاطىء بحيث يتناول مافيها من البر بالايدى .

طبرمين Taormina

«حصن منيع وبلد شامخ رفيع من عيون الحصون الازلية واشراف البلاد الدولية وهو على جبل مطل على البحر وله مرسى حسن والسفر اليه من كل الجهات ويحمل منه كثير من الغلات وبه منازل واسواق وهو مجتمع القوافل والرفاق

(١)«القصر وفيه المدينة القديمة وحي التجار والمسجد الاعظم .

(٢)«الخالصة وهي مقر الامير والحاشية والدواوين ودار الصناعة .

وليست بها حركة تجارة وصناعة وفيها الكثير من المساجد والمدارس

(٣)«حي الصقالبة وفيه المرسى والحركة التجارية وكان يسكنه الكثير من الصقالبة (من ناحية اسلوفاكيا)

(٤و٥)«حي ابن صقلب والحي الجديد وفيهما عامة الناس»

ثم انه لا تزال الى يومنا هذا بالمدينة حارة تدعى«اتارينى» كانت سوق العطارين فيما مضى وكان سكان المدينة ايام المسلمين زهاء الثلاثماية وخمسين الفا وبها ٥٠٠ مسجد.

الواصلة الى مسينا وبه ضياع صالحة ومزارع طيبة زاكية وبه الجبل المشهور المسمى بالطور الموصوف بالآيات المعروف بالعبادات وبه انهار غزيرة عليها ارحاء كثيرة وبها جنات فلائل ولها واد عليه قنطرة عجيبة وبناؤها يدل على قدرة بانيها.

قطانية Catania

«وهي البلد الجميل المعروف ببلد الفيل الشامخة القدر العالية الذكر، وهي على ساحل البحر وبها الاسواق العامرة والديار الزاهرة والمساجد والجوامع والحمامات والخانات، وبها مرسى حسن؛ ويسافر اليها من جميع الآفاق ويحمل منها كل البضائع والاوساق وجناتها كثيرة ومياهها من انهارها وعيونها غزيرة، وبها نهر في امره عجب عجيب وشان مستطرف غريب؛ وذلك انه في بعض السنين يفيض فيضاً كثيراً فتنصب عليه الارحاء وتمتلى منه الاودية وفي بعضها ينضب فلا يوجد فيه ماء يشرب؛ وعمارتها واسعة وباديتها ومزارعها طيبة نافعة واسوارها منيعة، واقطارها واسعة؛ والفيل الذي اشتهرت به هو طلسم من حجر على صورة فيل، كان منصوباً على بناء شاهق في سالف الازمان، ثم نقل الان فنصب داخل المدينة بكنيسة الرهبان.

لنتيني Lentini

«قلعة حصينة متحضرة الاسواق كالمدينة، وهي من البحر على ستة اميال، وموضعها على ضفة النهر المنسوب اليها وتصعد فيه المراكب باوساقها حتى تحط بين يديها من شرقيها، وبغربيها ارض واسعة جداً فسيحة الارجاء ممتدة الفضاء ولها بواديها انواع من السمك الجليل المعدوم المثال ما يحمل منه الى جميع جهاتها.

سرقوسة Syracuse

«من مشاهير المدن واعيان البلاد، تشد لها المطي من كل حاضر وباد ويقصد اليها قصاد التجار من جميع الاقطار، وهي على ساحل البحر، وهو محدق بها دائر

بجميع جهاتها والدخول اليها والخروج منها على باب واحد وهو بشمالها ، وشهرتها تغني عن التكثير من وصفها اذ هي منبر مشهور ومعقل مذكور ، وبها مرسيان ليس مثلهما فى جميع البلدان احدهما اكبر من الاخر وهو بجنوبها والاخر اشهر وهو بشمالها وبها فوارة النبودى تنبع من جرف على حاشية البحر وهي عجيبة الامر

« وبها ما باكبر المدن من الاسواق ذوات السماطات والخانات والديار والحمامات والمبانى الرائقة والافنية الواسعة ؛ (لاحظ انه لم يذكر بها مساجد) ولها اقليم كبير طائل وضياع ومنازل وهو خصيب المواضع زكي المزارع وتوسق منه السفن بالطعام وغيره من سائر الاوساق الى سائر البلاد والآفاق .

نوطس Noto

« من ارفع القلاع حصنا واشرف المدن حسنا قطرها واسع المساحة شريف المنافع والرجاحة وبه اسواق جميلة الترتيب وديار متقنة التركيب انهارها جارية بمياه غزيرة وعليها ارحاء كثيرة ولها عمل واسع المجال واقليم شريف الحال مزارعها ازكى المزارع ومواضعها اخصب المواضع وهي ازلية العمارة قديمة الآثار .

رغوص Ragusa

« وهي قلعة منيعة وبلدة شريفة قديمة العمران ازلية المكان محدقة بها الاودية والانهار كثيرة الارحاء والمطاحن حسنة الابنية واسعة الافنية ولها بادية خصيبة ومزارع زكية رحيبة وبينها وبين البحر سبعة اميال ونهرها المنسوب اليها يجرى منها بجهتها الشرقية وبهذا الوادى عند مصبه فى البحر مرسى حسن والمراكب تدخله وبه توسق وتفرغ ولها اسواق يتصرف اليها من جميع النواحي والافاق .

بثيرة Butera

احسن البلاد بادية وحاضرة ، واشبه شيء بالمدن الكبيرة العامرة حسنة البنيان مشيدة الاركان ، ديارها رائقة عجيبة واسواقها مرتبة رحيبة وبها مساجد للجماعات

ويدور بها واد من اعظم الاودية محـدقة به الجنات من جميع الجهات ؛ ولها فواكه طيبة وخيرات كثيرة معجبة .

جرجنت Girgenti

مدينة متحضرة من اشرف الحواضر عامرة بالوارد والصادر ؛ وقلعتها حصينة سامية ومدينتها زاهية قديمة العمران مشهورة فى جميع البلدان ؛ بل هى من اعظم الحصون منعة واجل البلاد رفعة يسعى اليها من سائر الافاق وتجتمع بها السفن والرفاق ديارها سامية في الديار ومحلاتها تفتن الانظار وبها اسواق جامعة لاصناف الصنائع وضروب المتاجر والمبايع واصناف كثيرة من الثمرات ؛ ازلية اولية تدل آثارها على سلطنة علية ، ويحمل على كل ما وصل اليها من عظام السفن ما يتجاوز اوساقها في الايام القلائل لاتساع ما بها من مواد الطوائل وبها جنات وغلات مشهورات ؛ وهي على ثلاثة اميال من البحر .

مازرة Mezzara

« مدينة فاضلة شامخة كاملة ، لا شبه لها ولا مثال ، فى شرف المحل والحال واليها الانتهاء فى جمال الهيأة والبناء ، وما اجتمع فيها من المحاسن التى لم تجتمع فى غيرها من المواطن وهي ذات اسوار حصينة شائقة وديار حسنة فائقة بها ازقة واسعة وشوارع واسواق عامرة بالتجارات والصنائع وحمامات فاضلة وخانات واسعات وبساتين وجنات طيبات المزدرعات ، يسافر اليها من جميع الآفاق ويتجهز منها بوافر الاوساق واقليمها كثير الاتساع يشتمل على منازل جليلة وضياع .

مرسى على (مرصالا) Marsala

كانت مدينة ازلية من اشرف بلاد صقلية ، وكانت قد خربت ودثرت فعمرها النورمس رجار الاول وسور عليها سورا فصارت ذات عمارة واسواق وخانات ولها اقليم واسع وعمل شاسع وسفر اهل بلاد افريقيا اليها كثير ... ولها فنادق وحمامات

وبساتين ومزارع طيبات .

اطرابنش Trapani

مدينة ازلية قديمة المحل على ساحل البحر والبحر يحدق بها من جميع جهاتها وانما يسلك اليها على قنطرة على باب شرقيها ومرساها بالجانب الجنوبي منها وهو مرسى ساكن غير متحرك تشتو به اكثر السفن آمنة من جميع الانواء هاد موجه عند هيجان البحر ويصاد به من السمك ما يفوق المقدار ويصاد به السمك الكبير ايضاً المعروف بالتن بشباك كبار ويصاد ببحرها المرجان السني وعلى بابها سباخ الملح البحرى ولها اقليم واسع الاجناب ممتد الاطناب ارضها من اكرم الارضين فى الزراعات كثيرة الفوائد والغلات، وطرابنش فى ذاتها ذات اسواق رحيبة ومعائش خصيبة وبقربها جزيرة الراهب وجزيرة اليابسة وجزيرة مليطمة ولكل واحدة من هذه الجزائر مرسى وآبار ومحتطب .

برطنيق Partinico

« بلدة جميلة طيبة وطية حسنة المنظر بهية وبها ضياع زكية يعمل بها القطن الكثير والحناء وغير ذلك من انواع القطاني وبها مياه غزيرة وعليها ارحاء كثيرة .

قرينش Carini

« بلدة طيبة جميلة حصينة وبها اصناف من الفواكه كثيرة وبها سوق كبيرة واكبر ما بالحواضر من الاسواق والحمامات والديار الواسعات ومنها يحمل كثير من اللوز والتين الناشف والخرنوب ويوسق به المراكب والقوارب ويتجهز به الى الكثير من البلاد .

* * *

بعد هذه الجولة التى جالها الشريف الادريسي حول المدن البحرية الصقلية ؛ مبتدئيا بيالرمة ومسينا متجها من الشمال الشرقي صوب الجنوب ثم منه الى الشمال

الغربي ؛ وقد اقتبسنا منه وصف اهم المدن ينتقل الى داخل البلاد واصفا المدن البرية فلنقتبس منه شيئا من ذلك ؛ قال عن :

الخزان

« وهو حصن فى اعلى جبل ، من اجمل القلاع وافضل البقاع ، وحاله افضل حال ولها عمارة وارحال ، ومنه يخرج النهر المسمى وادي الامير واصله من الخزان فينزل مع الخنادق وتجتمع به مياه فجانة ، (وهذا الخزان من جملة منشآت المسلمين لتنظيم الري فى البلاد وتوزيع المياه على المزارع والبساتين)

الصنم Castelvetrano

« رحل كبير ؛ يحتوى على بشر كثير ، وعليه حصن مطل ومعقل سامي المحل ، اشجاره مصطفة وبساتينه ملتفة ومياهه مندفقة وخيراته محدقة ، ومن الصنم الى مازر سبعة اميال .

قلعة النساء Calata Nisetta

« قلعة حسنة البناء ، مطلة على عمارات متصلة ومنابع جمة وغلات واشجار وفواكه .

قصر يانى Gastro Giovamni

« وهى مدينة فى اعلى جبل ، ذات حصن حصين ومعقل متين ، قطرها واسع وفناؤها شاسع ولها اسواق جميلة الترتيب وديار متقنة التركيب وصنائع وبضائع ، وصناع ومتاجر وامتاع ، ولها عمل واسع المجال ، واقاليم واسعة الحال ، مزارعها زكية وغلاتها مرضية وهواؤها بارد ومرافقها تشفى الصادر والوارد ، وبالجملة انها امنع بلاد الله مكانا واوثقها بنيانا ، ولها مع حصانتها فى جبلها مزارع ومياه جارية لا تحتاج الى البسط ، وبها رقة رائقة ورقعة شاهقة ، لا تغلب في الحال ولا يمكن فيها القتال .

(من اجل ذلك كانت آخر معاقل الروم التى سقطت بايدي المسلمين ، ثم كانت من بعد آخر معاقل المسلمين التي سقطت بين أيدي النرمان) .

حياة اللغة العربية ايام النرمان

كانت العربية كما رايت لسان البلاد الرسمي تستعمل في كثير من الاحيان قبل اللغة النرمانية وكان شعار الملك عربيا والتخاطب في البلاط باللغة العربية والنقود النرمانية عربية الضرب عربية الصيغة وانما نقش على احدوجهيها رسم الملك واسمه باللغة النرمانية واستمر العلم زاهرا والتعليم العربى منتشرا يدل على ذلك اجلى دلالة شواهد القبور من العهد النرماني الاسلامى التى لا تزال قائمة الى يومنا هذا .

من ذلك شاهد في مدينة بالرمة نقش عليه « لله العزة والبقاء ، وعلى خلقه كتب الفناء . ولكم فى رسول الله اسوة حسنة ، هذا قبر ميمونة بنت حسان بن على الهذلى عرف بابن السوسي توفيت رحمة الله عليها يوم الخميس السادس عشر من شهر شعبان من سنة تسع وستين وخمسمائة وهي تشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له .

انظر بعينك هل فى الارض من باقى ... او دافع الموت او للموت من راقى
الموت اخرجني قسراً فيا اسفي ... لم ينجني منه ابوابى واغلاقى
وصرت رهنا بما قدمت من عمل ... محصى علي وما خلفته باقى
يا من راى القبر اني قد بليت به ... والترب غير اجفاني و آماقي
فى مضجعي ومقامي فى البلا عبر ... وفى نشورى اذا ما جئت خلاقى

وامثال هذه الشواهد كثير فى صقلية ايام العهد النرماني، لا تكاد تحصى؛ وقد جمع اكثرها سيد كتاب صقلية وكبير المستشرقين ، ميكل عمارى ، فى كتاب جليل القيمة اسماه . Le Epigrafi Arabiche di Sicilia انما الذى يعطيك صورة صادقة لحياة العربية اذاك ، وانها كانت اللغة الرسمية ليس فى الدوائر الحكومية فحسب بل حتى فى الدوائر الدينية المسيحية ما نقش على قبر مسيحي

« توفيت انه ام القسيس اكريزنت قسيس الحضرة المالكة الملكية العالية العلية المعظمة السنية القريسية البهية المعتزة بالله المزوزة بقدرته المنصورة بقوته مالكة بنطالية وانكبرده وقلورية وصقلية وافريقية معزة امام رومية الناصرة للملة النصرانية سرمد الله مملكتها يوم الجمعة العشر العشرين من اوست سنه ثلاث واربعين وخمسمائة ودفنت بالجامع الاعظم ثم نقلها ولدها بالمستنجيد الى هذه الكنيسة حنت مخايلة يوم الجمعة اول ساعة العشا العشر بن مايه سنة اربع واربعين وخمسمائة وبني على قبرها هذه الكنيسة وسمى الكنيسة حنت انه على اسم ام مريم ودعا لها بالرحمة آمين آمين آمين » وانك لا ريب قد لاحظت ان التاريخ المستعمل كان التاريخ الهجري ولم يذكر التاريخ المسيحي في بناء كنيسة مقدسة للمسيحية وليس بعد هذا الاثر اثر ولا افصح من هذا البيان بيان .